ألا نتوب ؟!

محمد ياسر القضماني

تعالوا حَنَانَيكم مَنْ منَّا لا يستشعر حاجته إلى الله تعالى ؟!

مَنْ منَّا لم يفرط في جنب الله فتبدر منه المكروهات والرعونات ، بل ويتلطخ بالشهوات المُرْديات المُتْلفات ، وقد استرسل بعضهم إلى أن استولت عليه الغفلات فهو لا يصحو من غفلته حتى يفجؤه الموت!

حدِّثوني بالله عليكم مَنْ منَّا ليس بحاجة إلى محاسبة لهذه النفس الأَمَّارة بكل سوء ؟!

ومِنْ هنا اتجه الخطاب إلى المؤمنين بالتوبة إلى الله! فقال تعالى : ﴿ ... **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١]

كيف رأيتم ؟!

الخطاب للعصاة ؟! الخطاب لأهل الكبائر ؟! لأهل السوء والمخالفات ؟! لم يذكروا بالخطاب! بل وُجِّه الخطاب بـــ (أيها المؤمنون) وترتَّب الفلاح على هذه التوبة!

ممّ نتوب ؟ ولماذا لا ننفك عن حاجتنا لهذه الأوبة ؟ ولماذا تطلب على الدوام وفي جميع الأحيان ؟

يقول حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي – رحمة الله عليه – مجيباً عن هذا في كتاب التوبة في أول ربع المنجيات من كتابه الشهير " إحياء

علوم الدين " : « التوبة فرض عين في حق كل شخص ، لا يتصور أن يستغني عنها أحد من البشر ، كما لم يستغن آدم ؛ فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلفة الوالد أصلاً .

وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفي كلِّ حال ، فهو أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يَخْلُ عنه الأنبياء ، كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء ، وتوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا يخلو عن الهمِّ بالذنوب بالقلب . فإن خلا في بعض الأحوال عن الهمّ ، فلا يخلو عن وساوس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله . فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكلٌّ ذلك نقص . وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير . فأما الأصل فلا بد منه . ولهذا قال ﷺ : « **إِنَّهُ لَيُغَانُ** (1) **عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مائَةَ مَرَّة** » [رواه مسلم] ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ... ﴾ [الفتح : ٢] وإذا كان هذا حاله ، فكيف حال غيره ؟ » انتهى كلام الإمام .

◈ ◈ ◈

هذا كلام نفيس جداً وبالتأمل فيه تتبين لنا طبقات الناس ، وبالتأمل فيه أيضاً يتبدَّى لنا أن خطايا الأنبياء عدَّها مَنْ عدَّها منهم – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – خطايا بالنظر لأحوالهم المرتقية على الدوام صعداً في سلالم القُرْب من حضرة الله تعالى ومعرفته ؛ إذ هم منـــزهون عن الخطايا ؛ إذ مما يعتبر

(1) المراد هنا ما يتغشى القلب من الغفلة عن ذكر الله.

خطايا عند الأكابر الهم بالذنب ، وانطواء القلب على عزم سيء ، ثم يترقون إلى التأثر بالخواطر التي تنأى بهم عن ذكر الله والحضور معه ، ثم يترقون إلى عَدِّ تفويت شيء من المعرفة اللائقة بالله أو صفاته ، أو أفعاله .

وعلى هذا يحمل قول من قال : « حسنات الأبرار سيآت المقربين » فالمُقَرَّب فوق البارّ ولنأخذ مثالاً على ذلك : المقرب لا يُفَوِّت الصلاة عن أول الوقت ، والبارّ قد يفوته أول الوقت في بعضها فإذا صلَّى في يوم أربع صلوات مفروضة مع الجماعة في أول الوقت عدَّ ذلك حسنة وفرح بها ، أما المقرب إن نزلت إلى أربع وفاتته واحدة في أول الوقت عدَّ ذلك سيئة ، وأخذ يستغفر الله منها ، ويتعكر لذلك .

وهكذا تصبح محاسبات الأكابر لنفوسهم دقيقة ؛ قد ذكروا أن أحد الأكابر من العارفين قال : أنا أستغفر الله من قولي مرة الحمد لله منذ ثلاثين سنة! ولما طَلَبوا معرفة السبب – وهم يتعجبون من ذلك – قال : « احترق سوق من أسواق بغداد كان لي فيه دكان ؛ فقالوا لي : احترق السوق ونجا دكّانك فقلت : الحمد لله ؛ فأنا أستغفر الله من إظهار هذا الفرح وقد ذهلت من مُصَابِ جواري في السوق! »

أرأيتم كيف عدَّ عدم التأثر لمصاب الجيران ذنباً وقد فضَّل بذلك نفسه عليهم ، وفرح بعرض زائل و لم يسترجع لمصاب إخوانه ؟!

وهكذا كانوا يعرفون خطاياهم بمعاشرات الناس ؛ بل قال بعضهم أعرف حالي مع الله من خلق زوجتي معي وحَرَنِ دابتي ، فإن نَشَزت الزوجة وارتفع صوتها عليه عدَّ ذلك عقوبة له! ومن علامات الخذلان – عافانا الله – عقوبة على التفريط بحقوق الله التهاون بسنن وآداب المصطفى ﷺ . فكم من الناس يتهاونون

بها ولا يجدون أيَّ غضاضة في ذلك وإن حدثتهم على أهمية لزومها واقتفاء آثارها قالوا لك : أليست هي السنن التي يؤجر على فعلها ، ولا يأثم بتركها ؟!

يا هؤلاء اشتغلتم وعمرتم أوقاتكم بما هو أَبْرَك لكم ، وأجدى عليكم من سنن نبيكم ؟!!

تعالوا! ألا تتدبرون أحوالكم ؟! أحالكم يرضي الله تعالى ؟! ألا تشعرون بهذا المصاب الكبير ؟!

تقولون أي مصاب نحن فيه ، الحمد لله فنحن نصلي ونصوم ونزكي وحججنا مرات و .. و .. !!

تعالوا لننعطف على أنفسنا بمحاسبة صادقة ما قيمة أن تكون منّا صور وعبادات ورسوم طاعات لم نحضر فيها و لم نذق فيها لذة المناجاة والقرب ؟!

ماذا حَوَّلت هذه الصلاة من أحوالنا ؟!

أليست الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فنحن نصلي ولكن هل انتهت الفواحش والمنكرات في أُسَرنا ومجتمعاتنا ؟!

جاء في بعض الآثار أن الله ﷻ أخبر نبياً من أنبيائه أني سأعاقب قومك على إعراضهم فلما لم يجد عقوبة لهم فكأنه استغرب من تأخر الوعد الإلهي فأُوحي إليه ألا يكفي من عقوبتي لهم أنني حرمتهم لذة العبادة !!

فإنا لله وإنا إليه راجعون فأكثرنا معاقبون وواقعون في السخط الرباني ونحن لا نشعر ؛ فلنحاسب أنفسنا ، ولنجدد توبة مع الله ، فإلى متى وكأن الموت قد كُتب على غيرنا ، وكأننا ضمانة بالغفران ، وحتى المغفور له ألا يعمل لأن ربه أهل لأن يُعبد ، ويتَّقى ويُستغفر لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة ؟!

نسأل الله العفو والعافية ، والحمد لله أولاً وآخراً .